قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

للأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الثالث

جلسة صاخبة

رحم الله مصرباى ! لقد قتلته أطماعه ! وما أكثر ما تقتل الأطماع !

بهذه الكلمة نطق السلطان الغورى فى جمع من الأمراء وأرباب الدولة ، وذلك بعد أكثر من عامين من بدء سلطنته ، وقد اجتمعوا إليه يوما

فقال له الأتابكى قيت الرجبى : يا مولانا ! لقد لاقى جزاء غدره . لقد كان معنا أخا كريما وصديقا حميما . ثم غزا الحسد قلبه فاحتله ، فتداعى على أثره وده ، وانهار صرح وفائه . وملكت الأطماع جماع نفسه . وصحبها الزهو والترف ، مع الوثوق والغرور بقوته . فانطمست أمام عينيه معالم الحق ، وانبهمت آيات الصواب ، فأصبح كالناقة العشواء تخبط على غير هدى ، وتسير دون جدوى ، ولم يتخذ لنفسه عبرة ممن سبقه من الأمراء الطامعين الطامحين الذين غامروا بأرواحهم فى ميدان لوثته الحقود والأهواء ، وأثارت حمية فرسانه نيران الحسد والبغضاء . فذهبوا طعاما صالحا لهذه النيران . وبقيت اللوثة تدمغ صفحات حياتهم وتشوهها

فقال طراباى : إنه معذور يا مولانا فى طموحه هذا ، الذى أورده موارد التلف والبوار ... ! فإن مولانا إثر من الله عليه بسلطنته المباركة ، خلع أول ما خلع ، على مصرباى . ورقاه إلى رتبة الدوادارية الكبرى ، ولم يكتف كرم مولانا بذلك ، بل وكل إليه مع الدوادارية ، الوزارة والأستدارية ، ثم مكن له فى شئون الدولة ...

أنسى مولانا أننا حين لجأنا إلى بيع الأوقاف لنستعين بها على ملء الخزائن الشريفة ، لكى نحشو به الأفواه الفاغرة ، ... لم نستطع ... فعدلنا إلى أخذ ريع سنة كاملة منها ، وإلى فرض أجرة عشرة شهور كاملة على أملاك القاهرة وسائر أنحاء البلاد ، ثم خفضت بعد إلى سبعة شهور ، بسبب ثورة المالكين ضدنا . ولولاى إذ أنهيت إلى أسماع المقام الشريف خبر ثورتهم ، فوافق على مقترحى بتخفيض هذه الضريبة ، لوقع ما لا تحمد عقباه

فى أثناء ذلك يامولانا ! كان مصرباى أثناء ذلك مقيما فيما وكل إليه جمع ماله . فلقد وكل إليه أن يجمع ما فرض من المال على أملاك الصليبة إلى مصر إلى دير الطين إلى غير ذلك

شمر مصرباى عن ساعد الجد ، وكتب القوائم المطلوبة مستعينا بالمباشرين من أولاد ابن الجيعان . وبعث إلى أعيان الناس بتلك النواحى رسلا غلاظا شدادا لا يعصون ما أمرهم ... وأخذوا يثقلون على الناس بكل وسيلة مستطاعة ، وبكل حيلة قدروا عليها ، حتى وفوا بما فرض عليهم ... نحن حقا لا نؤاخذه بهذه الغلظة ولا بهذا الإثقال ، ولا بتلك الجفوة فى معاملة المالكين والأهلين ، لأنه كان يقوم بواجبه فى جمع المال المفروض . . . وإنما نمى عليه حبه للمال ، وانتهاز هذه الفرصة لل'جمعه منه .. وتدبير جزء منه لنفسه

قال السلطان : الحق أننا اجتزنا هذه المحنة بتوفيق الله ومعونته ، ولولاه سبحانه ، لفوجئنا بما لا نتوقعه . لقد كان الجندى ثورة دائمة . . إذا خبت نارها آنا فتحت رمادها وميض النار . وأخذ الدساسون يدسون بينهم ، ويثيرون حميتهم ، ويوقدون نار الثورة بينهم . وكنا نحن من ناحيتهم نلتمس لهم العذر ... فلقد تأخرت رواتبهم جملة شهور ، ولم نقدم إليهم من نفقة البيعة شيئا ... ولكننا كنا مكرهين ، فلقد تسلمنا زمام السلطنة ، والخزائن خاوية على عروشها . تصر فيها الرياح صرير اليائس الحزين . وتسرح فى جنباتها الجرذان سروح الآمن اللاهى . فصابرناهم بالتهديد بترك السلطنة ... وطوراً ببذل الوعود والملاينة ...

ثم أحببنا أن نستولى على بعض أوقاف المساجد ، ونشرع فى

بيعها لسد فراغ الخزائن، ونترك للمساجد ما تحتاج إليه منها لتظل مفتوحة للعبادة وذكر الله، وخير لنا أن تنفق أموال المساجد على الجنود السلطانية وضروريات السلطنة، من أن تنفق على المتعطلين من خدمتها، والتبطالين من شيوخها، والكسالى الخاملين من مدعى المعرفة والوصول ... لكن وقف فى وجوهنا ثلاثة من قضاة الشرع وبخاصة شهاب الدين أحمد الشيشينى قاضى قضاة الحنابلة، وجهم لنا فى وجهه، وقبض لنا فى قسماته، وعبس فى غضونه، وأغلظ فى القول. ثم وسمنا بأننا نعبث بأموال الواقفين وأعيان وقفهم على غير ما يرغبون، وأننا لن تنفقها فى سبيل الخير الموسوم لها . . . . كأن الخزائن الشريفة ليست سبيلا من سبل الخير، أو ليست مرجعا للبلاد وملاذا لها وذخرا وقت الشدة ... وكأن تهدئة خواطر الجند والقضاة على نفقتهم، ودفع مرتباتهم، والعمل على استتباب السكينة بينهم وبين أهل البلاد ليست مظهرا من مظاهر الخير، ولا معبرا من معابر البر، يصح أن تحول إليه هذه الأوقاف المباحة المأكولة . . . . . وجزى الله خيرا قاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة، فإنه وحده دون الثلاثة القضاة الآخرين كان مسايرا لنا فيما ذهبنا إليه ...

ومهما يكن من شئ فقد أغضينا عن بيع الأوقاف، واجتزأنا بما فرضناه عليها وعلى أرباب الأملاك

قيت : الواقع يا مولانا ! أننا وقتنا، واجتزنا التجربة بثبات وعزيمة، ولولا قوة إيمان كنا نستمدها من المقام الشريف، وصبر مكين تحلينا به تحت ظله، وإخلاص زدنا به تحت لوائه، لتفاقمت ثورة الجند، ولوجدنا لدى العامة من الملاك والسكان ما يجهدنا ويضنينا، وذلك لما أصابهم من المشقة بسبب ما فرض عليهم. وقد وقع منهم قلق واضطراب عدة مرات. حتى أدى ذلك إلى تعطيل البيع والشراء، وغلقت الحوانيت، وانفضت الأسواق. واحتجوا مرارا أخرى علينا. وتعرضوا لنا فى الطريق العام مهللين مكبرين تكبير الغاضب الهتاج

وفى أحد أيام الجمعة، عقب الصلاة، قوبلت بجمع منهم غفير، تجاه باب زويلة. لقد رجمونى بالحجارة أنا والأمير طراباى، حتى اضطررنا إلى أمر الجنود فأعملوا فيهم السيف، وقتلوا ثلاثة أشخاص، وجرحوا آخرين ثم تفرق الجمع

وقد انتهز بعض السفلة والأوغاد والقطاع، هذه الفرصة، وعاثوا فى أرجاء القاهرة فسادا، فسلبوا ونهبوا. ولولا همة مشكورة بذلها الأمير علان الوالى، لما انقمع هذا الشر. لقد قبض على جماعة منهم، ووسط نحو أربعة عشر . . . خرط أوساطهم بالسيف

ثم .. يا مولانا ! هناك الأشعبيون الطامعون الذين لا يحمدون الله على ما أولاهم من فضل، وحباهم من نعمة. أولئك الذين يفغرون فاهم كجهنم. ويقولون: هل من مزيد ؟ ولا لهم إلا الاستحواذ على المال من الناس، ولا هم لهم من الخزائن الشريفة إلا أن يستدروا عطاياها ويستمنحوا جداها، أمثال . . . . مصرباى وجان بردى الغزالى . .

لا أدرى لماذا حنق مصرباى — رحمه الله — علىّ ... وعلى أزدمر ... وتربص بنا الدوائر وقعد لنا كل مقعد .. ؟ ألأننا أوعزنا بالإغلاظ عليه فى أداء حساب ما جمعه ..؟ أم حسدا لقربنا من قلب مولانا السلطان .. ؟ أم لأننا كنا نذوده سرا عن الائتمار بالسلطنة .. ؟

السلطان: أما جان بردى الغزالى فقد أعطيته أمانى، فظهر لذلك بعد ما اختفى زمنا، هاربا منى، وقد خلعت عليه ورقيته إلى حجابة حلب، وأمرته بالشخوص توا إليها تلافيا لشره وحسما لنزواته، أما مصرباى فلقد لقى حتفه مجاهدا فى سبيل أطماعه الباطلة، بعد أن أكلت الغيرة قلبه كما تأكل النار الهشيم .. ! ألا تقص علينا أيها الأمير علان، قصة مصرباى كاملة . !

علان: أجل يا مولانا ! إن مصرباى لما قبض عليه بأمر المقام الشريف، وبعد مشورة الأمراء، وأدخل إلى البحرة وقيده، لبث زمنا ثم سير إلى الإسكندرية، فظل فى سجونها ردحا من الزمان: ولكنه استطاع من بعد أن يفلت من سجنه ويهرب

لقد قيل إن مملوكه « إياسا » بعث إليه فى سجنه بهدية فيها شموع، ودس وسط هذه الشموع مبردا من الفولاذ ! فتناول مصرباى هذا المبرد، وظل يعالج به قيده من كسر، فاستطاع بعد ذلك أن يفر ... وقد اختفى بعد فراره، وبحثنا عنه فى كل مكان فلم نعثر له على أثر. وقد احتلنا فى سبيل الظفر به بجملة حيل.

لقد أوزعنا إلى الجنود السلطانية أن يثوروا ضد المقام الشريف ثورة مكذوبة مفتعلة ، لنغرى مصرباى بالانضمام إلى صفوف العصاة الثائرين العصاة ، فنستطيع حينذاك القبض عليه . ولكنه لم يظهر .. وكأنه لدهائه فهم الخدعة فلم تجز عليه ...

وقد ابث مصرباى فى خفائه يجمع شمل مماليكه ويلم شعث أتباعه ، ويغرى الطامعين ذوى الأغراض بالالتفاف حوله . . . فالتف من حوله جماعة من الذؤبان والثعالب . . فأغراه هذا بالوثوق من نفسه ، وظن أن الأمر أصبح له ميسرا

فكمن برجاله فى طريق الأمراء حين نزولهم من القلعة من لدن مولانا السلطان فى تلك الليلة من رمضان التى نعموا فيها بتناول فطورهم على الموائد الشريفة . . . أراد مصرباى أن يقطع عليهم الطريق ، ويفاجئهم بالبطش بهم . . . ثم يزحف بمن معه إلى القلعة فيملكها ...

لكنه قد خاب فأله وكشف رخه وشالت نعامته . . فقد وقف المماليك حول أمرائهم وقفة روعته وزلزلت أقدامه ، حتى اضطر إلى الفرار هاربا بمن معه . ولكنه بعد أن جرح الأميران طراباى وتمر الزردكاش

رحل مصرباى بعد ذلك إلى الأزبكية ليجمع شمل أعوانه ويلم شعثهم . مغريا كثيرا من الأمراء والجنود أن ينضموا إليه ، ليعاود الزحف والهجوم ، ولكن لم يطعه أحد

ثم ذهبت إليه فى جمع حاشد من المماليك السلطانية ، فحملنا عليه حملة صادقة ، هو ومن معه من الثائرين ، حتى قتلناه شر قتلة ، وحملت جثته على فرس إلى الأبواب السلطانية الشريفة

طراباى : لو أن مولانا لم يغدق على مصرباى كل هذا الإغداق ، ولم يبسط له رداء الأمل إلى آخر مداه ، لما تطلع إلى أبعد من منصبه الذى رقى إليه ، ولكفكفت أطماعه ، وتضاءلت همامة نفسه وعجزت عن أن تطيع هواها ، ولما خدعته نفسه الأمارة بالسوء بأنه أهل للسلطنة أو الأتابكية . والنفس كالجواد إذا روخى له فى الخطام شرد وجمح ، وإذا جبذ من الزمام تطامن وكبح

السلطان : أيها الأمير طراباى ! إن لمصرباى على السلطنة يد لا ننساها ، فكان حقا علينا أن نبر له فى الجزاء ، ونجزل له فى العطاء .. لقد تعصب مصرباى للسلطنة قبل أن تتعصب أنت لها .. ردعا الأمراء إليها ، وأنت لاه عنها بجوار الملك العادل ، يغريك من بعيد بالأتابكية ، ويضمر لك فى نفسه الغدر والخيانة والحرمان والإقصاء عنها .. حتى فطنت أخيرا إلى مكره ، وبدأت تلمس حق غدره . فانحزت إلى جانبنا ، ولكن بعد لأى ومراودة

أما مصر باى فقد دبر أمر القبض على العادل بهمة وعجلة وحزم . وكان أهلا لمنصبه . ذا كفاية مذكورة ، ودراية مشكورة ، وإقدام كان له الأثر فى النصر والظفر . . وما كنا لننعى على أحد كفايته أو نغض من شأنها ، أو نسد سبل العمل أمام مواهبه ، أو نجفوه ... إن السلطنة العادلة هى التى تفسح المجال أمام الكفايات حتى تنتفع بإنتاجها . وإذا هى غضت من شأنها كبتتها ، حتى تستحيل بعد حين نارا محرقة يصعب إطفاؤها . ولا يثير حقد الأكفاء مثل الجفاء .. غير أن الرجل الكفء لا يشوهه مثل نكوصه وغدره ، وحيرته بين أطماعه وتردده . وإن عدم الولاء آفة الأكفاء . وهو حرى أن يطوح بهم نحو الحضيض ، ويصير ويسير بهم إلى الهاوية . وقد قيل : مصارع الرجال تحت بروق الطمع

طراباى : كنت يا مولانا بجوار العادل أؤدى واجبى . وحينما تبين لى وجه الحق ، وبدا لى أن مصلحة السلطنة فى أن أنضم إلى صفوف مولانا ، انضممت . وقد كنت فى سلطنة العادل أتابكيا بالنيابة . ثم عدت إلى منصبى بعد عام أن تمت السلطنة لمولانا . ورضيت بأن أستظل بظلها وأنضوى تحت لوائها فى مصاحبة أتابكى السلطنة الأمير قيت . وها أنذا لا أزال — كما كنت — رأس نوبة ، راضيا غير طامع . فلم يغننى مال ، ولم يستهونى منصب ، ولم أطفر بعينى إلى شىء تأباه مشيئة مولانا السلطان ، ووهبت لحياطة سلطنته الشريفة كل ما أدخر من روح وقوة ورأى

قرقاس بن ولى الدين « أمير السلاح » : ما أظن أن مولانا السلطان يشك فى إخلاص الأمير طراباى ولعله يضرب رجلا برجل آخر . . . أليس كذلك أيها الأتابكى قيت . . ؟

قيت : لا أدرى لماذا تغمز هذه الغمزة أيها الأمير قرقاس

بين يدى مولانا السلطان ! وهو أدرى ما تكنه صدورنا لمقامه الشريف، من حب مكين وإخلاص متين . وكأنى بك تتهمنى بالائتمار على فرار الشريف بركات أخى الجازانى من سجنه ، إن هذه تهمة باطلة، وحجة ظالمة ، لكنها متداعية واهنة ، تحمل فى أردانها دليل بطلانها

إنى أنا الذى ذهبت بأمر مولانا السلطان إلى الأقطار الحجازية ، أميراً للحاج ، واصطحبت معى عدداً ضخماً من صناديد المماليك السلطانية للقضاء على الجازانى ، ذلك المرتى الثائر هناك . فقضيت على ثورته ، وأطفأت نار فتنته . [فغير أنه استطاع أن يفر من يدى ، فقبضت توا على أخيه وإخوته جميعا ، وسقتهم أسرى يجرون الحديد إلى الأبواب السلطانية الشريفة، فتأثرت نفس مولانا السلطان حينما رأى الشرفاء فى القيد أذلاء، فأمر بسجنهم بدارى فى الأزبكية

قرقماس : أنت تعلم أيها الأمير أن مولانا السلطان قد فرض عليهم غرما ماليا ، ولكنهم لم يدفعوا منه شيئا . فوكل إليك أمر رقابتهم ، حتى يؤدوا ما فرض عليهم . فسجنتهم فى دارك، فكيف يفر الصيد من شباك أيها الصياد الماهر . . . ؟ وأنت أتابكى السلطنة وقائد جندها . ؟ إن فى هذه الحادثة لخطرا على سمعتنا ، وضياعا لما فرضه السلطان من الغرم ، وتهوينا من شأننا ، أمام الجازانى وعصبته فى بلاد الحجاز، وفى ذلك خطر علينا عظيم . . ثم ... إن الله عليم بذات الصدور ... !

قيت : إذا كان السجين قد فر ، هو وإخوته ، فذاك تراخ وغفلة من الحراس ، وسأقتص منهم . أما أنا فلا أدرى كيف تستسيغ يا قرقماس ، أن ترمينى بأى هيأت لهم أسباب الفرار . ؟ ألمال أبتغيه ؟ وقد وهب لى الله منه الشئ الكثير ، على يدى مولانا السلطان ... أم لجاه أبتغيه ؟ ومنا تستمد أسباب الجاه ، أم لمنصب أتطلع إليه ؟ وقد بلغت من المناصب الذرى...؟

حقا ! إنها لتهمة غريبة مريبة ، وإن فى النفوس شيئا ستتكشف عنه الأيام ... !

السلطان : أيها الأمير قيت ! إن المال لا حد لطمع النفس فى جمعه ... ما دامت النفس قد أشربت حبه ... وأما المنصب فلا يزال أمامك فيه جولة ... ! إن هناك منصب السلطنة ... !

وهو منى القلب وقرة العين ومطمح الفؤاد

أيها الأمراء ! أنتم جميعا تعلمون أنى أزهدكم فى السلطنة ، وأشدكم جفاء لها ... فمن شاءها منكم فليتقدم فى غير مواربة ولا خيانة

إنى مستعد للاختفاء من الميدان فى هدوء وطمأنينة ، بقلب راض ونفس مستقرة شاكرة

لقد أقمت فى السلطنة زهاء ثلاثة أعوام ، وأنا أوطد فى دعائمها ، وأثبت من أركانها ، وأعالج من ثغراتها . ثم بدا لى أن أطمئن وأقر بالهدوء فيها عينا ... فاذا أنا حالم واهم ... وإذا الأمانى فى العيون سراب . وحقا يؤتى الحذر من مأمنه

قرقماس : حاشا يا مولانا أن يخيس أحد بعهدك ، أو يشق عصا طاعتك ، أو يخرج عن حظيرة ودك ... إننا لنسيل دماءه على حد ظبانا ، ونقطع أشلاءه على غرب سيوفنا . وتزهق روحه لتذهب للمعتبرين حديثا

ألا فليحدث نفسه بالسلطنة من شاء ، وليذهب به خيال الأمل إلى أبعد الأنحاء . فنحن من ورائه نقطع جسده بددا ، ونتركه طرائق قددا

ازدمر الدوادار : وأنا معك يا قرقماس . نحمى حوزة السلطنة ، ونبذل الروح رخيصة فى سبيل الذود عنها ، ودفع الكائدين عن مسها بالأذى

ثم لا أدرى أيها الأمير قيت ! لماذا كنا معاً يداً واحدة ضد مصر باى ... ذلك الذى كان ينقم منا نحن الاثنين ... أليس ذلك لأننا كنا نحبط ائتماراته بالسلطنة ... وندفع كيده عنها ونكيد له كما كان يريد أن يكيد لها

قيت : مهزلة ! وثورة عابثة ! وفتنة فارغة ! وعجالة جادة ! ومزاح ثقيل الظل ! لا أدرى فيم تتحدثان ، وعن أى شئ تتكلمان ، وبأى امرئ تتهكمان ؟ ألا إن فى ذهنى لحية ، وفى كفى لعصية . وباطل اللائمة ، يشوه الكرامة ... وأرخص ما يبذل للشرف الدماء ، وأهون ما يباع لعزة الدماء

ولكن قبل ذلك ... ! قولا لمن يرفع عقيرته بالدفاع عن السلطنة . . إن السلطنة قد عرفت مبلغ بلائنا وصدق ولائنا وحسن وفائنا . فاحفظوا على أنفسكم الكيد ، واخشوا مغبة

القسية ، وأسفروا بوجوهكم عما تطمعون فيه ، فان النفاق دليل العجز ، وهو لن يغنيكم فتيلا

السلطان : لا تختصموا لدى . . ولا توقروا قلبي بمثل هذه الشحناء ... إنكم جميعا عمد السلطنة . على سواعدكم تقوم ، وبأعناقكم تقوى وتشتد . وهى فى حاجة إلى كل فرد منكم ، فكونوا لها حراسا ، واشحذوا سواسا ، ولتكن صلتكم الحسنى ورابطتكم المودة والإيثار . بكم ينعقد لها لواء العزة والمنعة . وينبسط بساط القبول والرضا

ذروا التغرير بالجنود ، وإغراءهم . وليفض كل منكم إلى بدخيلة نفسه ، ناصحا أمينا . وسيجد منى صدرا رحبا ، وسمعا خصيبا ، وقلبا سمحا ، ونفسا طيبة ، ومودة

طراباى : إنها لخطة حكيمة حازمة يا مولانا! وشرعة منصفة ، وإنى اعتمادا على مالى فى قلب مولانا من رضا ، ومالى إلى نفسه من قرب ، وما يعرفه فى من إخلاص ، وما تفضل به على من ثقة . ألتمس من مقامه الشريف باسم طائفة منا ، ألا يقبض على أحد من الأمراء بالظنة ، حتى يظهر له وجه الحق فيه أبلج ، ويتكشف له عنه الصواب وضاحا

السلطان: إذا ! أنتم تخشونى وتأعرون بى؛ كما كنتم تخشون الملك العادل وتأعرون به ... وإن خشيتكم الباطلة لتدفعكم إلى التحريض على الفتنة بين الجنود، ودفعهم إلى الثورة على السلطانة، ألا إن هذه عادة أسلافكم الذين وجدتموهم على أمة ، وأنتم على آثارهم مقتدون

أيها الأتابكى قيت ! لقد أمرت بالقبض على مصرباى ، وجان بردى الغزالى . وغيرهما من الأمراء المتهمين بالدس والائتمار وإضرام الفتن ولكن هل كان هذا الأمر إلا بعد استشارتكم ؟

قيت : أجل يا مولانا !

السلطان : إذا ! م تخشون ؟ ولم تهابون ؟ مادام الإخلاص رائدكم ، والولاء قائدكم ... ؟ ألا إن هذه حالة لا يستقر معها قيام لسلطنة ، ولا يدوم بها هناء لسلطان

وإذا فصحيح ما علمته من أن بعضكم يأعر بى ، ويثير الفتنة فى سبيلى ، ويتطلع إلى السلطنة ليشبع آمال طمعه

قرقماس وأزدمر معا : نحن على استعداد لتصفية هذا الموضوع ... وسيوفنا بين يدى مولانا مرهفة ، ورماحنا مؤتلفة، وجيادنا معدة مصطفة ، وجنودنا شاكية السلاح واقفة

السلطان : أنا لا أبغى حربا ولاضربا، ولا لجاجا ولا خصومة، إن الأسرة إذا تفككت عراها ، انتكث فتلها ، ووهى غزلها، وإذا اختلف أفرادها ، خارت أعضاؤها وجفاها حسادها . وإذا تنابذ أعضاؤها اجترأ عليها أعداؤها ، ولم تعد تستطيع أن تجابه أمورها الخارجية بحزم كامل وعزم شامل

وهناك أعداء لنا فى خارج بلادنا ، يتربصون بنا الدوائر ؛ ويقعد منا مقعد الثعلب من الفريسة ، يرقبها فى غفلة مصطنعة حتى إذا أمنت جانبه ، فجأها ودق عنقها . ونحن أحوج إلى توجيه قوانا لكبح هؤلاء الأعداء

لقد سمعتم منذ حين أن الثائر « إسماعيل الصفوى » أراد الانقضاض على حلب . وكنا على وشك أن نجرد عليه حملة تأديبية

غير أنى لا يهمنى أمر الصفوى بمقدار ما يهمنى أمر الدولة التى كونها بنو عثمان فى بلاد الروم . لقد اتسعت رقعتها ، وعت ثروتها ، وهيبت سطوتها ، وأصبحت متاخمة لممتلكاتنا ، وبمقدار ما نحيط به ملكنا من اتحاد وقوة وحيلة ، تبقى مهابتنا فى نفوسهم ، وتدوم مكانتنا من قلوبهم

لقد وفد إلينا قاصدهم — رسولهم — منذ حين ، وأقام لدينا ردحا من الزمان . لقد بعثوه إلينا ومعه هدايا ملكهم الثمينة ، رمزا للصداقة وعكينا للمودة ، وتأكيدا لحسن الجوار . وأغلب ظنى أنه إنما شخص إلينا ، ليسبر مبلغ ما فينا من قوة ، وما لنا من التئام ، وما بيننا من صلة وألفة ، وما فى بلادنا من ثروة ... وكل أولئك سيكون له أثره فى المستقبل المرتقب فى رسم سياستهم قبلنا

على أننا تلقينا هذا القاصد تلقيا حافلا ، ولم ندخر وسعا فى إظهار عظمة مصر وقوة سلطنتها أمام عينيه، ولم نقصر فى التنويه بفضل أمرائها ونباهة شأنهم ومبلغ شجاعتهم

وأنت أيها الأمير أزدمر ، حينما توجهت إلى قناطر العشرة فى زمن الربيع الزاهر ، اصطحبت معك هذا القاصد واحتفيت به احتفاء كان مضرب المثل ، وفهم منك مبلغ ما عليه سلطنتنا

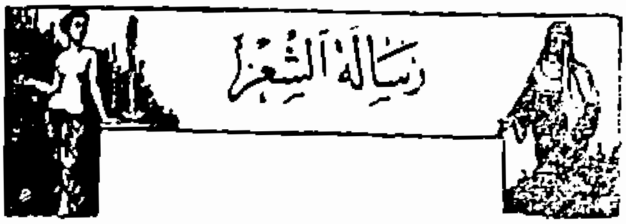

يا فلسطين ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

« إلى شباب العرب الأحرار فى كافة أقطارهم لعل فيهم من يرجم مجد فلسطين الذاهب ويؤدب هؤلاء الصهاينة الذين ما زالوا يكررون اعتداءاتهم على أبنائها المشردين »

٭ ٭ ٭

أنف الحق أن يهان فثارا   وتحدى الأزمان والأقدارا
صاخباً يلطم الطغاة بكف   لم تعود حمل الحلى سوارا
خلقت للجهاد والطعن والضر   ب ، ورد الضير إما أغارا
قاذفاً فى مسامع الأمة العز   لاء ، شكوى تفتت الأحجارا
لامنا « لجنة » تحاول وأد الحـ   ـق ، كيما تستعبد الأحرارا (١)
أيهان الأحرار والسيف مسـ   ـلول يقد الأجساد والأعمارا
صقلته الدماء حمراء سالت   من نفوس ترى المذلة عارا
هاجها حقدها فضجت شباباً   عربيا على الصهاينة ثارا
هم بقايا الليوث من أمة العر   ب ، وأبطالها الكماة الغيارى
عرب دوخوا الممالك قبلاً   وأدانوا الشعوب والأمصارا
هم أسود الصحراء لم يألفوا الضـ   ـيم ، وكم تنجب الليوث الصحارى
شغفوا بالعلى وعاشوا على الد   هر ، أباة أعزة أبرارا
دوخوا الغرب بالصوارم والسمر ، ودكوا الحصون والأسوارا
كلما أركضوا الخيول على اسم الله ، حازت من السماء انتصارا
وإذا سار جمعهم لجهاد   واكب النصر جمعهم حيث سارا
إن نصراً به السماء استطالت   لجدير أن يملأ الأسفارا

٭ ٭ ٭

إيه شعرى أثر كوامن حقد   فى الشباب الذى هوى الأخطارا
وتظلم أو أسمع الغرب لحناً   ثورويا ، وحارب الأشرارا
نحن نأبى أن نستكين إلى الذ   ل ، ونأبى بأن نعيش أسارى

(١) – إشارة إلى لجنة الهدنة

من جاه وقوة وحول وطول . ورأى ما لبلادنا من جمال وروعة . وعندما أراد العودة إلى بلاده خلعت عليه خلعة ثمينة ، وحملته إلى ملكه هدية نفيسة تليق بمكانتنا ... ثم ... بعثت فى أثره الأمير « تانى بك الخازندار » قاصداً من لدنا إلى ملكهم ليقوم بمثل ما قام به قاصدهم

هذه هى دولة بنى عثمان ... ثم هناك العربان فى بلاد الحجاز بل ومختلف جهات الديار المصرية ، يثورون من آونة لأخرى . حاقدين علينا معشر الجراكسة ناقمين منا ، يدعون أن البلاد بلادهم دوننا ، وأننا عنها جد غرباء ... يا لبلاهتهم ! كأن عشرات السنين التى انصرمت منذ ألف الملك المعز بن أيبك الجاشنكير دولته البحرية ؛ أو منذ ألف الملك الظاهر برقوق بن آنص ، دولته الجركسية ، ليست كافية فى نظر هؤلاء الحمق لتمصير عنصرنا ... ! وهؤلاء العربان الذين يدعون حقهم فى البلاد ، لم ينهضوا فى أغلب الأحوال ، إلى معونتنا إذا دهم البلاد عدو أجنبي ... ! فلله ما أشد حدبهم على بلادهم ، وما أنشطهم للذود عنها ... !

أيها الأمراء ! هكذا ترون أننا فى حاجة إلى اتحاد قوى وائتلاف صميم ... أما الخلف الذى أنتم عليه ، والتنابذ الذى يشيع بينكم ، والائتمار الذى تخفون إليه ، فحالة لا تقوم بها سلطنة ، ولا يهنأ بها سلطان — كما ذكرت — لن ينفض هذا الجمع من هنا اليوم ، حتى تقسموا جميعاً على المصحف العثمانى ، أمام قاضى القضاة ، يمين الطاعة والولاء

فأقسم الأمراء ثم أقسم لهم السلطان . وأرسل إلى المماليك بالقلعة فأقسموا يمين الطاعة طبقة بعد طبقة

« للكلام بقية »

محمود رزق سليم
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية